أمينة السعيد

المرأة من خلال دروس حرب أكتوبر

نشبت حرب أكتوبر ونحن فى أشدّ فترات حياتنا تعساً وشقاء . .

فقبلها مضت بنا سنوات عِجاف ، قضيناها على طول أيامها ولياليها السوداء نحترق بلهيب الخِزْى الذى لحقنا بهزيمة ١٩٦٧ ، وتركنا بوجيعة العار والإذلال نعيش كالمجانين ، نَنْكأ جراحنا بأظافرنا ونجترّ الألم والعذاب . .

وفى خِضمّ بحر الظلمات الذى أوشكنا أن نغرق فيه ، حدثت المعجزة ، ووجدنا قيادتنا الباسلة تخوض بنا معركة النصر ، بعد أن أتمّت لها العدة ، ونحن بيأسنا لاهون . .

وكان الله فى عوننا ، فاستطاع جنودنا البُسلاء أن يهدموا جدار الرعب بعبورهم القناة التى لا تُعبر ، وقَهْرهم الجيش الذى لا يُقهر ، وانتزاعهم عصا التأديب من يد إسرائيل . .

ولست أدّعى أننا أحرزنا النصر النهائى . . فما زال طريق الكفاح أمامنا طويلاً ، وحقل التضحيات واسعاً فسيحاً ، وقد يشاء قدرنا أن نمرّ بجولة أخرى أشدّ مرارة وقسوة . .

لكن هذا الاحتمال القوىّ لا يغيّر من الحقيقة شيئاً . .

فحرب أكتوبر كانت – ولا شك – بداية رائعة ردَّت إلينا اعتبارنا ، ووضعتنا فى الطريق الصحيح . ومادمنا أصحاب حقّ وإرادة وعزم ، فالله دائماً نصير القادرين على إعلاء كلمته بالروح والجهد .

وروعة هذه البداية فى أنها فَجَّرت حقائق خطيرة يتحتّم علينا أن نتدارسها بمنتهى الصراحة والصدق ، مادمنا حقيقة جادّين فى تحديد مكاننا الصحيح من هذا العالم الكبير الذى يحيط بنا .

وقد اعتدنا فيما مضى أن نهرب من مواجهة أنفسنا بما لا يرضى غرورنا من أخطائنا ونقائصنا ، لكن الوضع تغيّر الآن ، وأصبح من الضرورىّ أن تكون لدينا الشجاعة الأدبية على الاعتراف بأننا كنا على خطأ مبين ، وقد كلفنا ذلك ثمناً غالياً من كرامتنا وعزّتنا وأرواح أبنائنا ، وأن الاستمرار فى خداع النفس بهذا الأسلوب الساذج هو عملية انتحارية تجلب الدّمار النهائى . .

وفى اعتقادى أن أهم ما فجرته حرب أكتوبر من الحقائق الجديدة هو أن قضيتنا مع إسرائيل لم تكن فى يوم من الأيام قضية خلاف على أرض فلسطين ، ولا مشكلة يهود يبحثون عن وطن بعد أن نبذهم العالم الغربىّ وشرّدهم من ديارهم . .

لم تكن هذه سوى أعذار مفتعلة أريد بها تغطية الحقيقة الكبرى ، وهى أنها قضية حضارية بالدرجة الأولى . .

قضية عالم متحضر استطاع بتفوقه العلمىّ والاقتصادىّ والاجتماعىّ أن يحقّق للمجتمع الإنسانى انتصارات رائعة ، وكان فى مقدوره أن يحقّق مزيداً من هذه الانتصارات لولا وجود الشعوب المتخلفة مثلنا ، التى كرَّمها الله بثروات وموارد طبيعية هائلة ، لكنها بفعل جهلها وبداءتها عجزت عن المساهمة بها فى خدمة المجتمع الإنسانى ، وحوّلت نفسها إلى عبء ثقيل يرهق كاهل العالم المتقدم ، ويعطل مسيرته فى طريق الحضارة . . .

ويرى العالم المتقدّم إزاء عجز الشعوب المتخلّفة عن الاستفادة أو الإفادة بمواردها الكثيرة ، أنها فَقَدت حقَّ البقاء بمعناه الأدبى . ولقد أصبح من واجب الأقوياء المتقدّمين أن يرثوها وهى مازالت على قيد الحياة ، لكى يتولوا عنها مهمة تسخير

خيراتها العميمة فى خدمة الحضارة . .

ولقد سُخِّرت إسرائيل لتحقيق هذا الغرض ، بعد أن غلّفت قضيتها بالمبررات المفتعلة ، بقصد إكساب دعواها شرعية مزعومة ، لا تقوم قطعاً على أى أساس من حق ، ولكنها ببريقها الزائف كفيلة بتحريك قلب الرأى العالمى . .

والدليل القاطع على صحة ما نقول ، هو موقف القوى الكبرى كلها من قضية إسرائيل ، وتصديها – على تباين نظمها وعقائدها – للدفاع عن وجودها ، واتفاقها – برغم اختلافها فى كثير من الأمور الجوهرية – على ضرورة حمايتها بالحيلولة دون تعرضها لهزيمة جذرية تهدد كيانها القائم فى قلب العالم العربى . .

فمعركتنا مع إسرائيل لم تعد تقبل الجدل فى كونها صراعاً صريحاً بين التقدّم والتخلّف ؛ هذه الحقيقة المرّة التى غيَّبتها عن أذهاننا عهود متتالية من خداع النفس والهرب من الواقع . .

ثم جاءت حرب أكتوبر المجيدة لتزيل الغشاوة عن أبصارنا ، وتضعنا أمام الحقائق وجهاً لوجه ، فأصبح لزاماً علينا أن نعيد النظر فى أمورنا . . نتدارك ما فاتنا . . ونبدأ لفورنا فى خوض معركتنا بالسلاح الوحيد الذى يتفوّق به أعداؤنا علينا وهو الحضارة ، وهى مهمّة ليست بالهينة نظراً لضخامة المعوقات التى ظلّت على مضىّ الزمن تباعد بيننا وبين ركب التقدّم . .

والمسألة تحتاج بلا أدنى شكّ إلى دراسة أمينة وافية لنواحى تفوق أعدائنا ، ثم حساب دقيق لما لدينا من إمكانيات تفيدنا فى إزالة المعوِّقات التى تعطِّل حضارتنا . . ولسوف نجد أننا فى احتياج إلى التطوير الكامل لحياتنا العلمية والاقتصادية والزراعية والفنية . . . إلخ ؛ ولكن قبل قيامنا بهذا التطوير ينبغى علينا أن نكون على بيِّنة تامّة بأن الحضارة فى مضمونها موضوع إنسانى ، وأن الارتقاء الحضارىّ ليس عمليّة ماديّة فحسب ، إنما هو أيضاً عملية إنسانية باعتبار أن الإنسان هو الغاية ، وهو الوسيلة إلى بلوغ هذه الغاية ، ومن المتعذر أن نعتمد عليه فى تحقيق الارتقاء الحضارى قبل أن نرتفع به إلى مستوى القدرة على التجاوب مع روح التنمية المقصود . .

وهذا يضعنا أمام نوعية الإنسان الموكول إليه مهمّة إقامة صرح الحضارة . .

ولقد واجَهَنا عدوٌنا بشعب قويّ فى تقدّمه العلميّ وتفوّقه الحضارى ؛ وسرّ قوته أنه يستخدم كامل طاقاته ، فرجاله ونساؤه سواء من حيث القدرة التامة على العمل والإنتاج . . فى حين أننا لم نستطع فى ردّنا عدوانه سوى أن نستخدم نصف قواتنا البشرية ، لأن النصف الآخر – وهو النساء – غاية فى الضعف والهزال ، لوقوعه تحت ضغوط الجهل والتخلّف ، مما يقلّل من فائدته الوطنية ويعطّل حركة الحياة الجديدة . .

ولا أظننى أتجاوز الحقيقة إذا قلت : إن الحالة العامة للمجموعة النسائية عندنا تشكّل فى صورتها الراهنة المعوِّقَ الأكبر فى طريق تحضُّرنا . . وبالرغم من الجهود الكثيرة التى بُذِلت فى سبيل النهوض بنسائنا ، والحقوق المختلفة التى حَصَلْنَ عليها والدور الاقتصادى الكريم الذى يلعبنه فى اقتصادياتنا ، والرغبة الخالصة التى أبدينها دائماً فى نصرة الوطن ، والخدمات القيمة التى قمن بها فى الشدائد ، والتضحيات البالغة التى قدّمنها لبلادهن فى جميع المواقف الكبرى – بالرغم من كل ذلك مازال أمامنا طريق طويل جداً حتى يتأتّى لنا أن نصل بعموم نسائنا إلى المستوى الملائم لروح العصر الذى نعيش فيه . .

ولسنا نجهل أن الرجال عندنا مازالوا فى عمومهم دون المستوى الحضارى الضرورى لموازنتنا بأعدائنا ، لكنهم – على علاّتهم – أكثر تقدماً من النساء ، نظراً لأنهم كانوا دائماً أوفر حظّاً منهن بتحيز المجتمعات الشرقية لهم ، ولم يستعبدوا بالحجاب الذى ظل إلى عهد قريب يخنق حضارة المرأة ، ومازال إلى الآن يلقى بظلاله على العقلية النسائية ويؤثّر فى درجة تقديرها لوجودها واحترامها لنفسها . .

ولقد نجم عن هذا الاختلاف الواضح بين وضعى الرجال والنساء نوع من الاختلال العنيف فى القوى البشرية ، الأمر الذى ظلّ على مضىّ العهود يضاعف أعباء الدولة إزاء التزاماتها ، ويعطّل حركة مسيرها إلى الأمام .

ولسنا ننكر أن هذا التخلّف النسائى ليس أصلاً فى تاريخنا ، إنما ساعدت على قيامه ظروف من التخلّف والجهل ليست من ثقافتنا ولا حضارتنا . . فنى قديم

الزمن كانت المرأة الفرعونية والأشورية والبابلية تتمتع بمكانة مرموقة ، وتشغل مناصب الدين والسياسة . . ثم جاء الإسلام فكان أضخم ثورة اجتماعية فى تاريخ البشرية ، فمن قبله لم تكن المرأة – حتى فى أفضل المجتمعات – سوى كائن حىّ لا حقوق لها ولا احترام لآدميتها ، فإذا الدين الذى ظهر فى منطقة صحراوية جرداء يسكنها قوم خشنون على الفطرة ، يقلب الوضع رأساً على عقب . ويعترف للمرأة بكامل آدميتها ، ويسلّحها بالاستقلال الاقتصادى على أوسع معانيه ، ويحرّرها من ولاية الرجل عليها فى الحقوق الجوهرية ، ويشركها إلى جانب ذلك كله فى شئون الدين والسياسة . .

وبينما كانت الأوروبية حينئذ تعيش على هامش الحياة تابعة للرجل وظلّاله . وجدنا أختها العربية المسلحة ، بنت الصحراء القاحلة والبيئة البدائية الخشنة ، تتمتع بكامل أهليتها ، وتمارس حقوق الرجل الجوهرية ، وتلتزم نحو مجتمعها بما يلتزم به من واجبات . . هذه المكاسب الرائعة التى لم تحرزها نساء الغرب إلا بعد قرون كثيرة ؛ فالاستقلال الاقتصادى ، وحقّ الإرث ، والمساواة فى العلم والعمل ، لم تتضح معالمها فى أوروبا إلاّ مع أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . . فالعرب فى مجال المرأة كانوا البادئين . .

لكنهم مع الأسف وقفوا عند بدايتهم الرائعة ، ولم يطوّروا أوضاعهم مع تطور الزمن ، ولم يبذلوا أدنى جهد فى تحديد مفاهيمهم الروحية والاجتماعية بتجدّد ظروف الحياة واحتياجاتها ، فخسروا الكثير . . .

ومن أصدق ما قاله المؤرخون فى ذلك : أن نهضة المرأة الأوروبية بدأت من حيث انتهت نهضة المرأة العربية ، وأن نهضة المرأة العربية انتهت من حيث بدأت نهضة الأوروبية ، ومن هنا كان الفرق بيننا وبينهم . . نحن السابقون وهم اللاحقون . . إنهم سايروا الزمن فى حين أننا وقفنا فى مكاننا لا نبرحه ، فكانت النتيجة أن مرّ بنا موكب الحضارة وسبقنا بمراحل واسعة . .

ويعزو المؤرخون تفوّق الغرب وتحرّكه إلى أن قوانينه التى أخذها عنّا كانت فى نظره تشريعات وضعية سنّها الإنسان لتحقيق الصالح العام ، ومن ثم فليس

هناك ما يحول دون تغييرها كلما دعت الضرورة ، فى حين أن التدهور الحضارى الذى أصاب المجتمع العربى دفع رجعية الفكر إلى العمل على حماية تقاليده الاجتماعية بإكسابها مسحة من القداسة سلّحتها بلون من الحصانة لم يكن يقوى على المساس به سوى مجتمع رفيع فى تفتّحه الثقافى ، وهى المرتبة التى مازلنا إلى اليوم غير قادرين على بلوغها . .

هذا رأى المؤرخين الأصلاء ، وهو رأى صواب فى روحه ونصّه ، فمن أبرز خصائص التخلفِ العجزُ عن التكيّف مع الأوضاع الجديدة التى تفرضها الاحتياجات الإنسانية المتطورة ، مما يجعل السلوك غير قادر على مسايرة روح العهد ، كما يجعل المنطق الاجتماعى مجرداً من القدرة على هضم القيم الجديدة ووضع المعايير الملائمة لها . .

والعادة أن يكون لذلك انعكاسه على المفاهيم الروحية والاجتماعية مما يخرج بها عن معانيها الأصيلة وفلسفاتها الصحيحة ، ولقد حدث ذلك عندنا مما أصابنا بإساءة بالغة وقع الجانب الأكبر منها على المرأة ، فأطاح بقدرتها على أداء واجبها الوطنى كما ينبغى ، وعطّل نصف القوى البشرية عن العمل ، فكان التدهور الحضارى الذى أوقفنا من غيرنا موقف الضعف والعجز ، وأصابنا بالهزائم والنكسات ، ودفع بالأقوياء إلى معونة إسرائيل فى أن ترثنا ونحن مازلنا أحياء . .

إن حرب أكتوبر ، وما قامت به المرأة خلالها من خدمات ، وما قدمته من تضحيات ، قد رسمت لنا طريق حياتنا الجديدة ، وهدتنا إليه بما فجرته من حقائق دامغة من أهمها أن الإنسان هو صانع الحضارة والمتحكم فيها ، وأن مهمّته فى صنع الحضارة تقتضى أن يكون قويًّا بالقدر الذى يحميه من أطماع الأقوياء الآخرين . والمرأة عندنا بحالتها الراهنة تشلّ نصف هذا الإنسان ، وبقاؤها هكذا يطيح بجميع الجهود التى تبذل فى بناء صرحنا الحضارى . . لذلك ينبغى أن نبدأ بها خطة التنمية الجديدة ، وأن نحرّرها من ضغوط الجهل والتخلّف وانعكاساتها على المفاهيم الدينية والاجتماعية . . ناظرين فى ذلك إلى ما طرأ على المجتمعات القوية من تغيرات خلال السنوات السبعين الماضية ، ففى بحر هذه المدة تقدّمت حضارة العالم بدرجة مذهلة ، وانتقلت البشرية من عصر الدابّة إلى عصر

الفضاء . . وبعد أن كان الناس يسافرون من مكان إلى مكان على ظهور الإبل أو بعربات تجرّها الدوابّ ، باتوا وأصبحوا يطوفون الفضاء حول الأجرام السماوية بحثاً عن عوالم جديدة . .

ويرجع الفضل فى هذا التقدم الهائل إلى التغيّر الشامل فى مكانة المرأة ، وما ترتب عليه من انتقالها من مراتب التبعية والهامشية إلى مستويات المواطنية الكاملة .

ومن المؤرخين المعاصرين من يؤمن عن يقين بأن الحضارة الكبرى التى تجلّت فى القرن العشرين قد قامت أساساً على دعامتين متساويتين فى القوة والأهمية ، هما اختراع الكهرباء وخروج المرأة إلى الحياة العامة . .

ونحن على ثقة تامة بأن قيادتنا الواعية قد عقدت العزم على خوض معركة التحضّر كوسيلة لا غنى عنها فى تحقيق الارتقاء الضامن لحمايتنا ، والحفاظ على وجودنا فى مواجهة التحديات العنيفة الماثلة أمامنا . . ولكن الذى نرجو أن يكون واضحاً فى هذه العملية الكبرى أن المرأة جزء رئيسى فى التنمية الاقتصادية ، باعتبار أنها نصف القوى البشرية ، فمن الضرورات الحتمية أن تُهدم من طريقها المعوقات وأن تؤمن بالحريات والضمانات ، وأن يحدث ذلك فى ضوء خبرة وتجارب المجتمعات المتقدمة . . ومادمنا نؤمن بالحضارة فمن واجبنا أن نقتدى بأنماطها البناءة ، فالحضارة ضرورة للمجتمعات الإنسانية المتكاملة ، وهى ملك للجميع ، وليست وقفاً على أناس دون أناس ، واعتبارها تراثاً نوعيًّا أو إقليميًّا يعرض عملية التحضر إلى نكسات قد تعيدها إلى أحضان التخلف مرة أخرى . .

وعملية تحرير المرأة والارتقاء بها إلى المستوى الحضارى الكافى للموازنة بينها وبين نساء العالم المتقدم ، ومنه أعداؤها ، لا تتحقق بالاقتصار على فرض القوانين ، ولا الاكتفاء بالتوعية ، ولا الاعتماد على نشر التعليم ، فهذه كلها عوامل حضارية شديدة الترابط ، ولكنها بطيئة السير . . والدولة هى التى تنشطها وتعطيها السرعة

الواجبة . . فالدولة ملزمة بفرض الحضارة بقوة القانون ، كذلك ملزمة بحمايتها على مختلف المستويات ، وهو عبء ضخم ، ولكنه عبء واجب باعتبار أن الحكومة هى الجزء المتقدم من المجتمع بل الأكثر قدرة على تصور الأوضاع الجديدة وتحديد احتياجاتها ، وبناء عليه فهى ملزمة ومضطرة بأن تسبق المجتمع المحلى ، وأن تدفعه دفعاً إلى الحالة التى يرجى وصوله إليها .